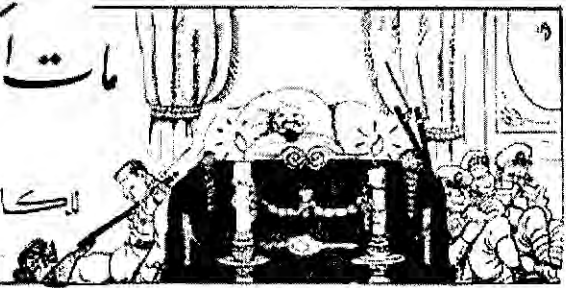




مات الملك عاش الملك

للكاتبة الانجليزية ماري كوليردج
بفتحة الأديب محمد عبد الفتاح محمد



أن الفم قد انطبق ، والعينين أسبلتا ، والقلب كأنه
كف عن وجيبه الدائب
ودار الهمس :

— يا لله ! ما أروع ! ما أشد جلاله !

كانت غشية الموت قد أصابت الملك ، ولكنه
أفاق منها فرأى الصمت المروع الرهيب قد شمل
القاعة . صمت سحري في روعته ، جليل في رهبته .
ووجد نفسه من كثرة الازهار الفواحة في مثل
الفردوس الذي وعد الله عباده المتقين . وألقى في
نهاية الفراش عند قدميه شمتين ترسلان ضوءاً
خافتاً مرتمشاً ، يخفق كخفقان قاب العاشق . وكان
رأسه هو الذي تحرر من الغطاء المحمل اللين الملقى
على بدنه الجليل ؛ ورأى على ذلك الضوء الذابل
الضئيل أربعة ، بل خمسة رجال حول السرير
يغطون في نوم عميق

وشاع في نفسه فرح شديد حينما استطاع أن
يتحرك . وما كادت ساعة القصر الكبيرة تنتهي
من دقائقها الاحدى عشرة حتى أحس بقوة الحياة
تطرد من جسده ضعف الموت . فهب من رقدته
جالساً وهو يضحك ضحكة خفيفة

ما هذه القوة الفاشمة التي كادت تودى به على
حين يرى بلاده في أشد الحاجة إليه ، ولكن
صوتاً خفياً هتف بالملك من وراء الغيب يقول :

لم يكن السكون شاملاً ولا الصمت كاملاً في
القاعة الرحبة التي خيم عليها جلال الاحتضار
وغشيتها الموت . هناك حيث رقد الملك مستسلماً إلى
تلك القوة الخفية التي استتوت عليه لتنتزع منه سر
الحياة . وكان الناس بين غاد ورائح ، يتهايمسون في
سكون وحذر كأنما يخشون أن يزجروا ذلك الذي
يافظ أنفاسه الأخيرة ، على الرغم من أن الطبيب
الخاص لجلالته قد أذاع أن عليه لم يعد يسمع شيئاً .
وكان أولى بالاحتضار أن يتململ لتجيب زوجه
الصغيرة الحسنة وقد جثت على حافة سريريه ، لو كان
دبيب الفناء في بدنه قد ترك له شيئاً من حس السماع
وروى في الاضائة ألا تكون قوية باهرة ، وفي
الستائر أن تظل مسدلة كيلا يؤذى الضوء عيني الراقد
الجليل ، على الرغم من أن الطبيب قد أكد أن
جلالته أصبح لا يرى شيئاً

ولم يسمحوا لانسان ما أن يدنو من الفراش
ماعداء أولئك الذين له في قلوبهم أخاص الحب
وأشد الوفاء ، على الرغم من أن الطبيب قرران
صاحب الجلالة أصبح لا يعرف من الناس أحداً

رقد وقد تدات يده الكريمة من الفراش كأنما
تبحث عن شيء ، فتناولاتها الملكة بين يديها منتحبة
معمولة ؛ بيد أن الملك لم يستطع أن يجيب على ضغطها
أيده بالمثل ، لأنه كان في واد آخر غير واديهما . ولو حظ

إن أمامه ساعة ليس خير ، سيمود بمدها إلى الحياة
ويكون هذا الحلم المزيج قد مر بسلام
وتنفس الصعداء عند ما مر ذلك بخاطره ، ثم
غمغم قائلاً :

— ستمود الأمور إلى مجراها بعد حين
واستذكر لحظاته الأخيرة ، ثم استدار ومرح
البصر في فراشه وقال :
— غير أني لم أكن يوماً ما جباناً ولا رعيديداً .
وابتسم حينما ذكر المهلة التي منحها إياه الصوت
الهاتف

ونظر أمامه فأنى ملكه الواسع المربض يمتد
تحت ضوء القمر الزاهر ، فقال لنفسه :
— سأجد ولا ريب ثلاثة آلاف عوضاً عن
ثلاثة ، أليس الكل أصدقائي وأحبابي ؟
ومر عند ما ترك باب القصر المنيف بطفل يبكي
بكاء مرأ ، فقال له في عطف :

— ما خطبك أيها الصغير ؟
فأجابه الطفل من خلال النحيب :
— لقد فارقت أبواي وذهبا إلى القصر من
جاء موت الملك ولم يعودا بعد . وإني كما ترى
وحيد تعب جائع ، ولم أتناول عشاءى حتى الآن ؛
ثم إن دميتى تحطمت . ألايت الملك يعود إلى
الحياة ثانية !

وانهمرت مسارب عيني الطفل واشتد نحيبه ،
فسر الملك أشد السرور ، وقال في نفسه :

— ها هو ذا أحد أفراد شعبي يتمنى لي عودة الروح
ولم يكن لديه بنت ولا ابن ، فأراد أن يداعب
الطفل ويأمله ، ولكنه آثر أن يغشى إلى شأن أهم
إذ كان في طريقه إلى منزل الرجل الذي أدناه

« أيها العبد ! سأمنحك الحياة ساعة بعد هذه
الموتة . وإذا عثرت فيها على ثلاثة يشق عليهم فراقك
جعلتك من الخالدين »

إذن فهذه ساعته . ساعته التي انتزعها من
الموت انتزاعاً . كم ياترى مر منها ؟

لقد كان ملكاً عادلاً كلوء العين لا يغفل عن
راحة شعبه ، جرى الصدر لا يعرف من الخوف
سبيلاً إلى قلبه ، ولكنه يحب الحياة . لله ما أجهلها !
لقد عرف الآن قيمتها لديه . على أنه لا يحب الحياة
لذاتها ، ولا يتعلق بها لذاته ؛ إنما يهوى الحياة لأن
أعماله لم تتم ، وآماله لم تحقق ، ورسائله لم تؤد على
وجهها الأكمل

وارتدت الأشياء في عينيه ثوباً جديداً وهو
يغادر الغرفة ماراً بالحراس النائمين . وفارقه شعور
السخط والتبرم بالقوة الظالمة التي سلبته الحياة

وقلب الأمر على جميع وجوهه ، ونبتذ الماطفة
وحكم العقل ، وقال في نفسه : « إن البلاد حقاً في
حاجة إليه ، ولكن هناك من يعدله من الرجال
أو يفضله . وإن الدنيا المليئة بالعقول الناجحة
والقلوب الكريمة . العالم وسيع ، وإنه ليراه الآن
أوسع . كل شيء يبدو في ناظره أكبر مما كان
من قبل . لقد نبذته بلاده الآن وهجرته بمسد أن
أفنى عمره في السعى لها والحذب عليها

وتردد لدى الباب : أين يذهب أول الأمر ؟
أيذهب إلى زوجه ؟ كلا ، لا ينبغي أن يراها الآن ،
فميناها قرحهما البكاء ، وجسمها هذه الحزن

يجب ألا يراها إلا حين يستطيع أن يضمها إلى
صدره ، ويرى دموع الفرح بمودته إلى الحياة
تنضح أسيل الحد ، كقطرات الطل على نضير الورد .

من نفسه وآثره على غيره

وخامره شعور غريب ، وخشى ألا يجده في منزله ، وقال :

— يا أمياس المسكين ! إني سعيد إذ لم يمت حزناً على ، فلا أستطيع احتمال فقدته ولا الحياة من بعده . وأنى حينما دلف إلى منزل صديقه المشاعل تغدو وتروح محمولة والجياذ مسرجة ؛ وبلغت أصوات المهرج والمرج مسمعية ، فتلفت هنا وهناك ، ولكنه لم ير الوجه المألوف . وأبصر باباً مفتوحاً ، فتسلسل منه ، ولكنه لم يثر على صديقه ؛ وبحث عبثاً في غرفه . كانت كلها خاوية ، فانتابه هلع شديد . لم يقتله الحزن ولا ريب ! . وبلغ الجناح الذي تساقيا فيه الصفو على غرة من الليالي ، ولم يجده هناك أيضاً . رأى الكتب مبعثرة والزجاج متناثر الشظايا على بلاط الغرفة

ولح إطار صورة ملق على الأرض ، فالتقطه فكانت صورته وقد تحطم الإطار ، فتركه يسقط من يده ثانية كأنما سمعته نار تندلع منه

وانتهى ناحية الموقد الكبير في ركن من القاعة ، وكان قلبه يتأجج بالجر كأنه المحب اليائس فرأى بقية من رسالة لم تمسها النار بعد ؛ كانت رسالة كتبها بخطه إلى صديقه الحميم ؛ فتناولها ومربصره عليها ، فألفاها آخر رسائله إليه كان قد ذكر له فيها تفاصيل مشروع اعترم القيام به وما كاد يطعمها النار المتهبة حتى دخل القاعة شخصان يتجادلان : يقول الرجل المرأة :

— أين أمياس ، ألا تعلمين ؟

— ذهب ليقدم ولاء الملك الجديد ، إذ نحن كما تعلم في قلق مستمر ، وهذا الملك ليس على شاكلة

سلفه من حيث الآراء الغريبة ، وقد كان سافه يحمل له المقت والكرهية ؛ وقد عمل أمياس الماكر على أن يفسح لنفسه مكاناً في البلاط الجديد ، وآمل أن يكون قد أفلح . لقد أقسم إلى أنه كان يستهجن سياسة الملك القديم . لا صرية في أنه كان محبوبه المطف واللطيف والحظوة ، ولكن يجب ألا نحكم العاطفة إذا إردنا الرغد في الديش . وقد بدأ خطته حين مات الملك ؛ وها أنذا أرسل أمتته في أثره

— حسن جداً !

قالها الرجل الذي عرف الملك فيه أحد سفرائه ، وقال بعد برهة :

— سأتبعمه فوراً . وإني أقول لك والكلام بيني وبينك ، أن ذلك لصالح الدولة ؛ فالملك الجديد أرعن طائش لا يدري ماهية الحكم . لقد أمرني أن أعقد صلحاً لا يتفق وما شيدنا من قصور الآمال ؛ غير أن الحرب قائمة لا محالة . ولا اكتمك أني لو كنت أطعت أمره لعزت الترقيات في الجيش وشحت المناصب

ولم يطق الملك سماع بقية الحديث ، فانصرف وهو يقول في نفسه :

— لأذهبن إلى أصدقائي ، فهم على الأقل لا يجنون شيئاً من مدهانة خافي ، ولعله مجردهم من كل ما وهبهم إياه

وسمع الساعة الكبيرة تدق ربع الساعة الأول وهو يسير . لقد كان ملكاً حكيماً ، إذ اتخذ سبيله إلى أفقر الأحياء في مملكته ، وقد زار هذه الأمكنة من قبل متخفياً ، فأثري نفسه ما هم فيه من المسكنة والفقر

— لقد طالما حاول أن يعبث بالقانون . كان
أولى به أن يهتم بالأبرياء الذين يغيبون في السجون .
إن في الأمر شيئاً ولا ريب
يا لله ! كأنما التأم هذا الجمع للنيل منه
والقدح فيه

ودقت الساعة الربع الثاني حينما ابتعد الملك
عن هؤلاء الرعا
وأحس دافعاً قوياً دفعه إلى عدو له كان يكيل
له السبائب والشتم فينتقمها منه هاشكاً باسمه ، وأخذ
سبيله إلى السجن قدماً . وانتقى غرفة منه تضم بين
جدرانها الدكائن رجلاً واحداً يكتب مستنداً
على إحدى ركبتيه . فأدام الملك النظر إليه ،
وسرعان ما دخل حارس السجن يرافقه رئيس
مجلس الشورى ، وهو رجل كان يوجب به الملك
وبقدره حق قدره
ورفع السجن رأسه بسرعة ثم قال في اضطراب
وقلق :

— ولكن بوى غداً
ثم عاد وتمالك نفسه وقال :
— غير أنى الآن على استعداد . لي رجاء واحد .
هل آمل أن تبلغوا هذه إلى زوجي ؟
فتكلم رئيس مجلس الشورى في هدوء :
— لقد مات الملك ، وأرجى تنفيذ الحكم
فيك . إن الملك الجديد سياسة أخرى ، ومن
المحتمل أن يطلق سراحك غداً

فقال السجن في حزن عميق :

— مات ؟

فقال الآخر في حزم :

— أجل . مات !

ولم يكن أحد يعلم من أين أتته تلك الحمى
الخبيثة التي أودت بحياته ، حتى هو نفسه لم يكن
يعلم علم اليقين ، وغمغم ضاحكاً :

— سوف لا تمس الحيات جسمي بعد الآن
وكانت منازل الحى الرضيع تدل على فقر مدقع
وبؤس شديد ؛ وكانت الأمراض والأدواء تبدو
واضحة على وجوه الأهلي البؤساء الذين وقفوا
جماعات على قارعة الطريق يتهايمون ويرددون اسمه
من حين إلى حين . كان اسمه جارياً على كل لسان ،
شاغلاً كل ذهن ؛ وسمعه فيما سمع يرددون النشرات
الطبية التي أذيعت عليهم وبحزرون اليوم الذي
يشيعونه فيه إلى مقبره الأخير . عجباً ! يظهر أنهم
بموتة مقتبطون

وفي إحدى المواخير أبصر خمسة رجال حول
مائدة يجلسون شراباً ، فوقف يتسمع إلى حديثهم ؛
وسمع أحدهم يقول :

— حمد الله على خلاصتنا منه . فما فائدة ملك
يضن بفلس واحد زيادة عما أمر به . ولا يخفى عليكم
ما في ذلك من كساد تجارتنا . أما الملك الجديد فيبدو
لي أنه من صنف آخر . وستزوج بضاعتنا في حكمه
وايم الحق . فقال آخر :

— أجل . لقد كان ملكاً لا يطاق . كان يطارداً
ومحرم علينا اللهو . بأي حق كان يفعل ذلك ؟ أريد
أن أعلم
فقال ثالث :

— أما أنا فأقول . ليسقط ذوو التيجان . فإن
كان لا بد منهم فليتركونا وشأننا . وإني لأؤثر
شاباً لا ينصاع لما تعلمه عليه سالبات النهي الكواعب
وقال رابع :

فهب السجين واقفاً مسح جبينه كالحمام
ثم قال :

— سيدى لقد كنت أجهل وأحترمه . كان
ملكاً بكل ما فى هذه الكلمة من معان سامية ،
وقد عاملنى معاملته لسيد عظيم . ذلك فضلاً عن
زوجه الصغيرة الحسنة ، لكم أتعنى أن يبعث مرة
أخرى ، وكان الدمع يجول فى عيني الرجل أثناء
حديثه

ودقت الساعة الربع الثالث والملك يغادر
السجن الرهيب

كان عطف عدوه أشد وقماً على نفسه من غدر
خلصائه ومحبيه . خير له أن يموت من أن يكون
مدينًا بحياته لئلا ذلك الرجل

غير أنه لم يسهه إلا أن يطرب لشعور الرجل
نحوه وتقدير ما فى نفسه من نبل ومروءة ؟ وهان
عليه الموت وسهل لأنه رأى أن محبة الناس له لم
تكن إلا حلاً من الاحلام . إن هؤلاء الناس
الذين تمب لهم وسهر عليهم لم يبلغوا بعد شأواً
من يحترم نفسه

— أين أصدقائى الآن ؟ . طفل غريب ،
وعدو نبيل . إنهما كل مالى من أصدقاء . وهل
للحياة قيمة بعد ذلك ؟

ألا يجدر به أن يستسلم للقضاء . ولا يتمنى
بعد الآن شيئاً ؟ لقد تلقى درساً بائعاً . فى وسعه
أن يرقد فينام فينال الراحة الكبرى . لقد بررت
القوة الالهية مسلحاً مع الانسان الطامع الجاهول .
ماذا ينفع المرء أن يثبت عنده كذب أخيه ؟

وفارقه الأسف ، وذهب عنه الحزن ، وبرز
الخفاء ، وتكشفت له الحياة

وتلبدت السماء بالسحب القاتمة فحجبت قرص
القمر الزاهى . وهبت ريح باردة نالت من جسده
المهوك . وأحس عزلة موحشة تشمله ، ووحدته
قاسية تكاد تصرعه ، وقاض قلبه بأساً وغماً

أحقاً ليس هناك من يهتم له ويحزن عليه ؟ إنه
يهب كل ماله فى سبيل نظرة عطف حقيقية
واحدة . كم يتوق الآن إلى شخص يبذل له من
ذات نفسه ما يجمع عليه يده ويشد به عضده . كم
يموزه الآن أليف ينعمه بنعمة وداده ويقبل عثاره
لديه لحظات أخرى ثم ينتهى الأجل . كيف
بالله احتمل عمره الطويل ؟ على أى حل لم تبق له إلا
دقائق معدودة

وأحس سلوة فى نفسه وعزاء فى قلبه . نسي
كل ما أساء به إليه الناس وصغر لديه شأنه وحقر
فى عيني نفسه

ووقف لدى باب غرفة زوجه يقدم رجلاً
ويؤخر أخرى . ماذا يفعل لو وجد أمه الباقى
مرابطاً ؟ ألا يحتمل به أن يعود حتى لا تصرعه الحقيقة
المرة ؟ غير أنه غمغم قائلاً :

— لم أكن يوماً ما جباناً ولا رعديداً
وكانت زوجه تجلس إلى جوار الموقد وحيدة
تخفى وجهها بشعرها الأسود الوحف المسترسل .
أحس عند ما رآها لأول وهلة بعطف نحوها يكاد
يذيب منه القلب . وعجب كيف تسرب إليه الشك
فى إخلاصها

وكان خاتمتها الثمين يطقق بنصرها كمهمده به
منذ أن أهداها إياه ، ولم يكن بالفرقة ما يسترعى
البصر سوى بريق حجره الأخاذ
وشعر بحنين إليها . ودهش لم تركتها وصيقاتها